خاتم العرس

قصة مصرية

محمود خيرت بك

كثيراً ما نصادف في حياة بعض الناس ما يثير الاعجاب من سمو الفكر وسداد الرأي ونبل العاطفة حتى لكأنهم فوق معاصريهم مرتبة او أنهم سبقوا العصر الذي ظهروا فيه

وكان حسام من هذا النفر ولما يتجاوز الثانية والعشرين من عمره حتى احبه رفاقه حباً كانوا لا يصبرون معه على البعد عنه . يجتمعون عنده في كل خميس وفي ليالي الأيام التي تعطل فيها مصالح الحكومة وهم يقطعون الوقت الى ما بعد منتصف الليل بالسمر الشهي البريء

وكثيراً ما كان يجرهم الحديث الى تناول سير اهليهم وشؤون أسرهم وما يكون قد تخللها من نوازل وأحداث . ولكن حساماً كان يمسك عن الخوض معهم في حياته الخاصة مقتصراً على السلالة العربية التي انحدر منها فيذكر ما للعرب من العادات وما اتصفوا به من خلق الإباء وسجية الشجاعة الى حد الاستخفاف بالدم في سبيل الأخذ بالثأر وهم مسوقون الى ذلك بدافع عنيف من الكرامة والاعتزاز بالتقاليد

وكانوا اذا استزادوه من طرف خفي لعلهم يصادفون في حديثه ثغرة ينفذون منها الى نسبه ونشأته ادرك غرضهم فيلجأ الى بعض الأمثلة على ما لتلك الخصال عند أسلافه من الرعاية والتقديس . فهم ينفرون من الزواج اذا سبقه تشبيب بعروسه رجساً وعاراً . ولا يسمحون بالزواج ممن هو من غير القبيلة حتى لا تختلط الأنساب

وعند ذلك يحتدم الحديث ويتعالى الحوار وهم دهشون كيف يكون الحب عند العرب جرماً فيدللون بذلك على بعدهم عن أبسط نظم الحياة . وما كان الحب الا الأساس السليم الذي يمد صلة الزوجين بالقوة ويكتب لها البقاء وهو يفتح امامهما طريق السعادة ويجعل من تلك الصلة المحكمة جنة الأرض ونعيم الدنيا . ثم يمضون تلومهم في تعصبهم القاسي لصراحة الأنساب وما يجره على الأفراد من الجناية على حريتهم والوقوف في سبيل أمانيهم

وكان حسام في خلال ذلك يلزم الصمت ويصغي الى ما يدلون به من الحجج حتى اذا فرغت جعبتهم منها اخذ يفتح عيونهم على ما يجهلون من سجايا أسلافه وسلامة تقاليدهم . ثم قال

أحد أنهم يتعرون من الحب وهو طبيعي لا تمكن دفعه وضروري لدوام تلك الصلة وإنما هم يعشقون الثيب والعذارى والفارغات من النساء لأن هذا ما يفتح باب الشك في عفتهن . ولذلك كان في نظرهم سبة وحرجاً . ثم إن ما ركز في نفوسهم من البأس والاستخفاف بأرواحهم في سبيل العزة القومية لا ينهض بغير العصبية وهي لا تقوم إلا على صحة النسب وحمايته مما يفسده الاختلاط البعيد على أن العرب قوم على الفطرة التي جعلت نفوسهم أكثر تهيؤاً لقبول ما يرد عليها من القواعد وينطبع فيها من البواعث ولكن ما شد عليهم من قيود التقاليد إنما هو وليد ما رسخ في بواطنهم من آثار تلك العوامل التي تغلغلت جذورها فيها فأصبح من العسير عليهم التخلص منها وقد صارت بعد ما درجوا عليها وألفوها خلقاً أصيلاً وتمثلت منهم جبلة راسخة حتى أن بعض المتحضرين منهم الذين انغمسوا في ترف المدن المتحضرة وفترت نفوسهم أو كادت عن البداوة بعد أن اطمأنوا إلى سهر الحكومة وحراستها لا تزال بعض تلك التقاليد راسخة فيهم رسوخ العقيدة . ولعل ما يصادفنا كل يوم من فواجع الأحداث بين أفراد العرب في الصعيد والوجه البحري طلباً للثأر أو ثورة للعرض لأكبر دليل على ما لبعض تلك العادات في نفوسهم من التأصل والاستقرار

وما كان ليخفى على حسام غرضهم من كل هذه المحاورات ولا كان ليضن عليهم بما يعرفون لولا أنه هو أيضاً لم يكن ليعرف من أمر أبويه شيئاً إلا ما كان نذراً قليلاً لا يشفي . وكل ما بقي في ذاكرته من صغره أن أمه اختطفته ذات ليلة من سريره الصغير على أثر صوت شديد دوى في الحجرة فأيقظه . صوتاً صرخ أبوه على أثره وأمه تنحدر به على درجات السلم انحداراً ثم انطلقت به وهي تعدو وتعثر في طرق المدينة المظلمة إلى أن بلغت به داراً أخرى اطمأنت عليه فيها

لقد كان عند وقوع هذا الحادث طفلاً لا يتجاوز السادسة من عمره وكان فكره عند تلك الصرخة مشوشاً وهو لا يزال في غشية من النوم فلم يشعر بأكثر من أن مصاباً وقع لأبيه وأن أمه كانت تخشى عليه منه حتى أنها أسرعت تطلب الفرار به من بيت الدار . ولا بد أن أباه قضى على أثر ذلك الحادث لأنه لم يره من بعده . ثم إن أمه التي كانت تزوره بالدار الجديدة في فترات متباعدة ثم ... وانقطعت أخباره عنه ... الذي جرى لأبيه وما الذي جرى لها ؟ ومن ذلك الرجل الخطير الذي استودعته إياه ؟ وهو لا يزال يذكر ... من الليالي اضطربت فيها تلك ... الخدم يسارعون إلى سد النوافذ وإيصاد الأبواب ويسهرون إلى الصباح عند ما ... ذلك الشيخ بالحضور ... مدرسة المبتديان ... الأولى ... انتقم من ... وكانت تشرح ... أحاجي ومعميات ... أجهد نفسه في حل رموزها دون أن يهتدي

وفي يوم من الأيام اتفق رفاقه على ان يذهب معهم الى حفلة ساهرة بدار الاوبرا لمشاهدة احدى مآسي شكسبير وكان على الزائرين ان يحضروها في ملابسهم الرسمية وما كان لدى حسام وقتئذ « ردنجوت » لهذا الغرض ولا كان في الوقت متسع لإعداده فأشار عليه رفاقه باستئجاره كما يفعل كثير من الناس في مثل هذه الاحوال الضيقة ولا سيما أنه ما كان ليرتديه الا بضع ساعات الحفلة . ولذلك اسرع الى رجل يعرفه كان يعيش على إقراض الناس مقابل ما يرهنونه عنده من منقولاتهم

وكان غرضه من ذلك أن يدله على المخازن التي تؤجر مثل هذه الثياب ولكن التاجر استمهله وهو يفكر ثم قال أظن أن لدي طلبك فان سيدة حضرت الي من زمن وأودعت عندي ردنجوتاً كالذي تطلب . وعند ذلك تناول سجلاً وأخذ يقلب صحفه حتى اذا عثر على الرقم الخاص بتلك السلفة قصد الى إحدى العيون المثبتة في الحائط وأخرج منها صرة ناوله اياها فشكره ووعده بردها

وكان الردنجوت جديداً حتى كاد يقطع بأن صاحبه لم يلبسه الا انه بسبب طيه في تلك الصرة أصاب بعض اجزائه تثنٍّ يزول متى مرت عليه يد الكواء

ولكنه أخذ يفكر في امره وهو يقول لولا ان صاحبه اصبح بعيداً عن هذه الدنيا لكان سعى الى رهنه بنفسه ثم وان التي رهنته سيدة فهي اما زوجه وإما أمه أو إحدى ذوات قرباه . وعند ذلك يسبح في بحر خواطره فيذكر ان صاحبه كان في بسطة من الرزق لأنه لا يقتني مثل هذه الملابس الا من كان من ذوي الجاه واليسار . وينتقل من ذلك الى ان تلك السيدة لم تتصرف به الا بدافع من الفقر والحاجة شديد . وعندئذٍ تظلم الدنيا في عينيه وتجري دموعه لهذا المصير الذي أصبحت اليه بعد ما كانت فيه من مطارف النعمة

من عساه أن يكون صاحب هذا الردنجوت . ومن تراها تلك السيدة التي عضها الجوع فهان عليها أن ترهنه لا أن تبيعه لأنه عزيز عليها ؟

هكذا أخذت هذه الاسئلة تروح وتجيء أمام عينيه وهكذا نسي اخوانه ونسي الغرض الذي استأجر الردنجوت من أجله لأنه أصبح وكل همه أن يهتدي الى اسم صاحبه والى مكان التي رهنته ليسرع اليها ويرده عليها . وعند ذلك وقع نظره على أحرف منقوشة فوق الجزء الأعلى من البطانة فلم يتردد في أنها اسم التاجر الذي صنعه ولذلك أسرع الى حانوته بعد أن سأل عنه . وكان الرجل طاعناً في السن وقد مرّ على تفصيل هذا الردنجوت زمن بعيد ولكن صاحبه كان من صفوة زبائنه فلم تكد تقع عيناه عليه حتى تذكره ولكن حسام شعر [illegible] كأن السماء أطبقت عليه وأن الأرض تزلزلت به وقد علم من التاجر انه لم يكن غير [illegible]بيه

لقد أحيت تلك اللحظة الرهيبة في نفسه المعذبة ما اندفن في تراب الماضي من أليم الذكرى . بل لقد ضاعف عذابه ان تلك السيدة التي يجهلها لم تكن غير أمه وهي تعاني ألم الفقر ومرارة الحاجة بينما هو يرتع في مروج النعمة التي ورثها . وهكذا عاد مطرقاً مهموماً ولكنه قصد الى المرشد ليفتش منه عن مكانها

وكانت تقيم في « قلعة الكبش » وهي ربوة عالية على مقربة من جامع ابن طولون قامت فوقها حُجر متنزة على غير نظام تشبه الأكواخ يسكنها فقراء الحي والى جوانبها كلابهم ودوابهم وأبقارهم التي يتجرون بألبانها . وعلى مقربة منها اولادهم الصغار يمرحون ويلعبون

وكانت الشمس قد أخذت تختفي شيئاً فشيئاً وراء الأفق وقد انعكست عليه أشعتها فتركته كنطاق متوهج يدور حول المدينة حتى اذا غابت وأخذت بوادر الظلام تنتشر في جميع الأرجاء اكتسى الفضاء بلون بنفسجي قاتم تشقه اشباح المآذن وأصوات المؤذنين

في تلك اللحظة كانت احدى تلك الحجر تموج بالحركة والنساء على بعد خطوات واجمات ذاهلات حتى اذا خرجت منها احداهن دُرْنَ من حولها فقالت لهن في عبرات حزينة : قضي الأمر . قضي الامر . انها لن تعيش الى الصباح . ثم أخذن في العويل . وما كان اولئك النسوة غير جارات لصاحبة تلك الحجرة . ولكن الطبقات الفقيرة يعطف افرادها دائماً بعضهم على بعض حتى لكأنهم أسرة واحدة والشقاء يجمع بين المكدودين

ولقد ادرك حسام ان تلك الحجرة لم تكن لغير أمه وهي حجرة بالية يضيئها مصباح حقير مثبت فوق احد حيطانها . وكانت خالية من الأثاث الا من حصير قديم تحت قطعة من بساط عبث بجدته الزمن . وكانت أمه راقدة فوقها تحت غطاء رث متآكل وكأنها مستغرقة في النوم. الا انها شعرت به فصاحت بصوت ضعيف :

— من ؟ عفوك وانت يا سيدي ثم أخذت تبكي

وعند ذلك ادارت رأسها الى جهته محدقة وأخذت تنظر اليه طويلاً ثم زفرت زفرة طويلة وهي تقول في عبارة متقطعة :

— انه في سنه . .

— من هو يا سيدتي ؟

— ولدي يا بني . لكم وددت لو أني اراه ولو مرة واحدة قبل ان افارق هذا العالم . كان من أشهى أماني ان اطلع عليه وان احدثه عن ماضيه الذي يجهله . ولكني اذكره لك الآن وقد ساقتك الأقدار الي . انه يقرب الشبه منك ولعلك في سنه ثم أنا يجمع بينك وبينه الشبه

وكان حسام في خلال ذلك يشعر بسروه لها ودنو ساعتها فلم يشأ ان يبعد بينها وبين

تلك الأمنية الأخيرة في الدقائق القليلة الباقية وقذلك أسرع الى يديها يدفنها بين كفيه ثم قال لها في صوت حزين : ها هو يا أماه . .

وعندئذ دبت فيها قوة جديدة كتلك القوة التي تبثها في المحتضر صحوة الموت فساعدها ثم أسندها الى ساعده الأيسر وأخذ يمسح دموعها بيمناه . وكانت تنظر اليه مترددة شاكة حتى اذا روى ذلك الجانب المظلم الذي علق بذاكرته من حياته الاولى تهلل وجهها وانبسطت أساريرها وأخذت تفصل له ما جهل من تاريخ حياته وحياتها وهي تضغط على كفه

« نعم يا ولدي إن هذا الزعبوت الذي رهنته هو لأبيك . وكنت كلما حاولت التصرف فيه أنف وهو الأثر الغالي الذي أذكره به في أيام الرخاء والنعمة . ولكن الحاجة مريرة قاسية . ولقد كان الصوت الذي سمعته ليلة حملتك الى غير دارنا صوت قذيفة أرادوك وأرادوني بها فأخطأتنا وأصابت أباك . . إنهم كانوا قساة يا حسام ولكنهم ما كانوا ليطيقوا ذلك الحب الذي ربطني بأبيك ولا أن يخرج ابنهم على تقاليدهم فيتزوج من غريب عن القبيلة . . . »

« وكانوا أيضاً يتعقبونني ويتعقبونك حتى أنني نصحت الى حيٍّ جدك لأبيك الذي أودعتك عنده فأدخلك في القسم الداخلي حرصاً على حياتك وحتى اضطررت الى الابتعاد عنك كي لا يهتدوا اليك . ومن ذلك العهد عافت نفسي الحياة وكرهت العالم فأويت الى هذه الغرفة فكانت ديري الذي ترهبنت فيه . وكانت قبري أيضاً ، وان من القبور ما هو قائم فوق سطح الأرض والناس غافلون »

« على أنك بحمد الله لا خوف عليك الآن وقد مات أبي وخمدت تلك الثورة التي قضت عن أبيك كما قضت على هنائي »

« لقد كان ابوك يحبني ويعبدني . وكنت أحبه وأعبده حتى لقد كان هذا الخاتم الذي أهداه اليّ ليلة عرسنا في أصبعي أثمنه . . وأذكره به . انه ليحفظ في حلقته الضيقة كل ما مرّ بنا من أحلام الماضي الحلوة . . وانه ليرسل الذكرى الى نفسي التي يغمرها الحزن كلما فاتت من ذكريات الحب الممزقة فيربطها . . . كما يضم الرباط الحريري على باقة الورد لتتفتح الناضرة

« ليتك تدري يا حسام ما . . . عليّ حتى اني . . . اصابع . . . قبل . . . الذبان ، وأستقبل وأنت توسدني في . . . ما ينتظر . . . من النوم الطويل . . . ينحدر ظلامه الى جفنيّ وترتسم صفرته على وجهي — لأرجو أن يظل خنصر أصبعي الذي تقلص وضمر ، كما لا يزال ذلك الرباط يضم . . . بعد ذبول أوراقها . . . .

وعندئذ . . . . رأسها في صدره . . . . حبيبها . . . الوداع الأبدي ثم انفجر في البكاء .